**بحوث ودراسات**

# ملاحظات حول دراسة السُّنن الإلهية في ضوء المقاربة الحضارية

**عبد العزيز برغوث***

**مقدمة**

يتناول هذا البحث بالدراسة والتحليل مسألة السُّنن الإلهية، ويبحث في مفهومها ودلالتها وأبعادها على مستوى تطبيقاتها الحضارية والعمرانية والاستخلافية. كما يؤكد البحث على ضرورة تطوير مقاربة حضارية متكاملة لدراسة السُّنن الإلهية بغية اكتشافها، وفهمها، وتسخيرها في مجال تحقيق مشروع الاستخلاف الحضاري، الذي كُلف به الإنسان، بوصفه خليفةً لله سبحانه وتعالى. ويحاول البحث التأكيد على ضرورة معالجة مفهوم السُّنن وفق رؤية حضارية متكاملة تعيد لنظرتنا إليها معنى النظام، والتكامل، والتفاعل، والتشابك، والتحليل، والتركيب، واستجلاب القوانين والمعاني، بدل النظرة الجزئية الوصفية التي تكرس معنى التجزئة والانتقاء والاختزال في تناول موضوع السُّنن.

والمقصود بالرؤية الحضارية في هذا السياق: النظرة المتكاملة للموضوع؛ بحيث يُعالج من مختلف الجوانب والأبعاد مع التركيز على القيم والمضامين الحضارية التي يمكن أن تستفاد منه. فمثلا هنا يمكن النظر إلى مسألة السُّنن من خلال اللغة والتفسير والعلوم الشرعية المختلفة والفكر الإسلامي المعاصر، ثم التعريج على بعض أبعادها الحضارية والقيم التربوية التي يمكن أن تستخلص منها. والرؤية الحضارية عادة ما تساعد على التصور الشمولي المتكامل في النظر، واتباع المنهج المتكامل في التحليل، والتركيز على الجوانب الواقعية التطبيقية، واستجلاب المضامين التربوية والتثقيفية التي يمكن توظيفها في

* كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا، hadharah@hotmail.com

تغيير الوعي والسلوك. فعند الحديث عن الرؤية الحضارية فإن كل هذه المعاني والأبعاد تتداخل لتقدم إطارا تحليلاً، يعين على تحقيق المقاربة الحضارية للظاهرة محل الدراسة. إن هذا التحديد الأولي الإجرائي البسيط لمفهوم "المقاربة الحضارية" يحاول أن ينطلق ببعض دوائر الوعي الراهنة في العالم الإسلامي، من منطق التجزئة والنظرة الأحادية الإسقاطية إلى نوع من النظر الشمولي المتكامل. ولكن ينبغي، -في مراحل متقدمة من إعادة البناء لقدرات الفكر والوعي الإسلامي- أن تُطرح مسألة المقاربة الحضارية على مستوى ابستمولوجي منهجي، من أجل إعادة تشكيل قدرات الاجتهاد الحضاري المبني على النسق القرآني الكوني المتكامل. وليس من أهداف هذا المقال الاشتغال بهذا التأطير المعرفي المنهجي لمسألة السُّنن، بل محاولة التعامل مع التراث المتوافر والوعي الذي تتمتع به بعض حركات الوعي والتجديد في لحظتنا الراهنة، من أجل الانتقال خطوة إلى الأمام على طريق بناء قدراتنا على "المقاربة الحضارية" بوصفها قدرة إبداعية وترشيدية على مستوى المنهج المعرفي، والاستراتيجية الحضارية، والتشكيل الثقافي، والبيئة العملية التي تنتج الإبداع وتستثمر فيه. ذلك لأن توافر مقومات المقاربة الحضارية المستنبتة في الوعي والثقافة والشخصية ونظم الاجتماع البشري وآليات التفاعل مع الواقع، هي من الشروط الأساسية لتحقيق هذه المقاربة فكراً ووعياً وفعلاً وممارسة.

والسُّنن هي: "مجموعة القوانين التي يسير وَفْقَها الوجودُ كلّه، وتتحرك بمقتضاها الحياة، وتحكم جزئياتها ومفرداتها، فلا يشذ عنها مخلوق. وما في الكون ذرة أو حركة إلاَّ لها قانون وسُنّة، فكل الكائنات الحية من إنسان وحيوان ونبات...إلاَّ ولها قانون. وما من كوكب أو نجم، إلا وله قانون لا إرادي أو لا ذاتي يسير وَفْقَه. وما من حركة نفسية أو اجتماعية أو نقلة حضارية، إلاَّ ولها قانون أيضا يتجلى في الأسباب والعوامل المؤدية إليها."[1] فمن الواضح أنه عند دراسة مفهوم السُّنن من خلال القرآن الكريم، ورؤيته الكونية، ينقدح في الذهن معنى التناسق، والانضباط، والغائية، والقصد، والدقة، والميزان،

[1] هيشور، محمد. **سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها**، ط1، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1996م، ص 27.

والمعيار، والضابط، والناظم الذي ينظم حركة الأشياء والأفعال. ومن ثَمَّ فإنَّ الإنسان حينما يتأمل بحصافة، شؤون الكون والحياة والاستخلاف، فإنه يسترجع من وعيه الباطن، ومن فطرته الأولى، حقيقة أنَّ الكونَ وبناءه، والإنسانَ وعمرانه، والحياةَ وطبائعها كلَّها محكومة "بنظام[2] سُنني إلهي نموذجي أصيل" محكم ومقدر بصورة متناهية في الدقة والانسجام. هذا النظام هو الذي "أقام عليه، بمشيئته النافذة، وحكمته البالغة، نظام الكون والإنسان والمجتمع والحضارة."[3]

ويتَّبع هذا البحثُ المنهجَ الاستقرائي، ومنهجَ تحليل النصوص، ليعيد قراءة بعض النصوص القرآنية والنبوية، وكذلك بعض الإسهامات الإسلامية المبكرة والمعاصرة في ميدان تناول موضوع السُّنن الإلهية. ويشير البحث إلى بعض المعاني الحضارية والتربوية، التي يمكن أن تستفاد من مقاربة هذا الموضوع المهمّ. ويرجع الباحث في الدراسة إلى جملة من المصادر الأصلية والمصادر الثانوية؛ سواءً تلك التي ترجع إلى تراث الفكر الإسلامي المتقدم، أو إلى جهود علماء الإسلام المعاصرين.

ويهدف البحث، بصورة عامة، إلى تقديم بعض الملاحظات المنهجية الضرورية للدراسة المتكاملة للسُنن؛ بحيث تجمع بين مختلف المداخل الأساسية التي تجلي أبعادها، كما يهدف إلى تقديم مقاربة تساعد على التعامل المنهجي مع السُّنن وإبراز خصائص الرؤية القرآنية في نظرتها تجاه هذه السُّنن. ومن أجل تحليل موضوعي لقضية السُّنن، يحاول البحث عرض هذا المفهوم، واستخلاص حدوده ومداخله، وبعض مضامينه الحضارية، من خلال تقديم نماذج لبعض التعريفات الواردة، سواء في كتب اللغة العربية، أو التفسير،

---

[2] إن القول هنا بأن السُّنن تندرج في إطار نظام إلهي متكامل يحكم حركة التاريخ والاجتماع الإنساني، لا يعني القعود عن الاجتهاد والبحث العلمي المنهجي للتفاعل مع السُّنن والتعامل معها فهما وتحليلاً واكتشافاً وتسخيراً، كما لا يعني أن يكتفي المسلم ببعض السُّنن التي أشار إليها القرآن الكريم، ويزكي نفسه، ويقعد عن الإبداع والنظر والاكتشاف والممارسة الفعلية التي تنضج وعينا على السُّنن وخبرتنا بها؛ فنتمكن بذلك من تجاوز الحديث عن السُّنن التي أجرى عليها الله الاجتماع البشري والقوانين التي نظم بها حركة الكون والآفاق إلى التفاعل التسخيري لها في واقع الفعل الحضاري الاستخلافي الممكن في الأرض.

[3] محيي الدين، حازم زكريا. **مفهوم السُّنن الإلهية عند محمد رشيد رضا من خلال تفسيره "المنار"**، رسالة ماجستير، كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية، بيروت، لبنان، 2001م، ص 21.

أو العلوم الشرعية الأخرى، أو الفكر الإسلامي المعاصر. وسوف تنتظم هذه الدراسة المحاور الآتية:

أولا: الإطار المنهجي العام لمقاربة مسألة السُّنن الإلهية حضارياً.

ثانيا: ملاحظات حول تناول قضية السُّنن من خلال الفكر الإسلامي المتقدم.

ثالثا: ملاحظات حول التناول العلمي المعاصر لقضية السُّنن الإلهية.

رابعا: ملاحظات منهجية حول التناول الحضاري للسُنن الإلهية.

## أولا: الإطار المنهجي العام لمقاربة مسألة السُّنن الإلهية حضارياً

هناك قضية منهجية ينبغي تحريرها والتعامل معها، بوصفها مدخلاً أساسياً لمقاربة موضوع السُّنن الإلهية من خلال القرآن الكريم. إن من أهم الحقائق السُّننية في وجود الإنسان وصيرورته، أن السُّنن هي أساس نجاحه أو فشله في المشروع الاستخلافي[4] الموكل له، بوصفه خليفةً لله سبحانه وتعالى. ومنذ أنْ خلق الله الإنسان وزودّه بقدرات السمع والتعقل والتبصر والعلم والإدراك[5]، ومنذ أن ميَّزه[6] بميزة الخلافة، ورقّى مداركه ووعيه،

---

[4] للمزيد من التفاصيل في موضوع الاستخلاف راجع:

- الدسوقي، فاروق أحمد. **استخلاف الإنسان في الأرض**، د.ط (مصر: دار الدعوة، د. ت)؛
- العجمي، أبو اليزيد. **حقيقة الإنسان بين المسؤولية والتكريم**، د.ط، مصر: المؤسسة العربية للنشر والتوزيع، د.ت؛
- الخولي، البهي. **آدم عليه السلام، فلسفة تقويم الإنسان وخلافته**، ط3، مصر: مطبعة الاستقلال الكبرى، 1974م؛
- النجار، عبد المجيد. **خلافة الإنسان بين الوحي والعقل**، ط2، فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1983م؛
- المطروحي، بدر الرحمن. **الإنسان وجوده وخلافته في الأرض**، ط1، القاهرة: مكتبة وهبة، ت. 1990).

[5] مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: 78].

[6] يقول ابن خلدون: "اعلم أن الله تعالى ميز البشر عن سائر الحيوانات بالفكر الذي جعله مبدأ كماله ونهاية فضله على الكائنات وشرفه...والفكر هو التصرف في تلك الصور وراء الحس، وجولان الذهن فيها بالانتزاع والتركيب، وهو معنى الأفئدة في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: 23]، انظر:

ليستوعب مشروع الاستخلاف، ولينجزه في الواقع البشري المعضل؛ منذ تلك اللحظة، سجلت أول سُنّة في التاريخ وهي: أن الإنسان لن يُحقق مشروع الاستخلاف كما ارتضاه الله، ولن يبني الحضارة والعمران المنشود، إلا عن طريق فهمه للسُنن الإلهية وتسخيرها، كما أمر الحق تبارك وتعالى. ومنذ تلك اللحظة، أصبحت السُّنن هي القانون الوجودي والكوني والتاريخي الذي يحكم عمران الإنسان واستخلافه. ومن غير هذا الوعي السُّنني،[7] والفقه[8] العميق للسُنن،[9] والتسخير الفعال والصحيح لها، لن يستطيع الإنسان تحويل الفكر إلى عمل، والصور الذهنية إلى نشاطات وسلوكيات مفيدة في عالم الاستخلاف.

وعلى هذا الأساس يتضح أن مفهوم "السُّنن"، يُشكل بُعداً محورياً في فهم حقيقة الإنسان، وحقيقة وظيفته الاستخلافية في هذا الكون، وفهم طبائع الحياة وأنماط العيش، وإدراك التغيرات والتحولات التي تأخذ حيزها في الآفاق والأنفس والتاريخ وفق سنن مطرّدة لا تعرف التغير والتبدل، كما يصرح بذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ

---

– ابن خلدون، عبد الرحمن. **المقدمة**، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، ط3، القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، د.ت، ج3، ص 1008.

[7] برغوث، الطيب. **مدخل إلى سُنن الصيرورة الاستخلافية: دراسة في سُنن التغيير الاجتماعي**، ط1، كوالالمبور: آسليتا سيندرين برحاد، 2002م، ص 3-12.

[8] قد لا يرى بعض الباحثين المعاصرين ضرورة لبناء علم أو فقه خاص بالسُّنن الإلهية، بحجة أنه أمر زائد عن المطلوب، أو أنه لا حاجة لنا به، أو أن الفكر الإسلامي المتقدم لم يترك لنا تراثاً أو علماً في هذا المجال، أو أنّ هذا الأمر معلوم بالضرورة وكأننا نُعَلِّمُ المسلمَ مسلَّمةً من مسلماته الإيمانية... ولكننا ننزع إلى الرأي القائل بضرورة تشكيل هذا الفقه على السُّنن، سواء تلك التي أشار إليها القرآن الكريم أو السنة النبوية، أو أشار إليها بعض علماء المسلمين المتقدمين، أو تلك التي ينبغي أن نُعمل العقل والاجتهاد من أجل اكتشافها، من خلال دراستنا للتاريخ وللاجتماع البشري ولعمران العالم في مراحله المختلفة، بدءاً من طبائع الحياة البدائية، وسُننها إلى طبائع الحياة العالمية وسُننها. والسُّنن كما تعرض في هذا المقال قوة وسلطان، ينبغي أن يتمكن منه المسلمون، من أجل تسخيره في النفاذ إلى أقطار السموات والأرض والترقّي العمراني والحضاري المبدع. ولربما لم تكن هناك حاجة إلى هذا الفقه أو المعرفة في بعض مراحل تطور الأمة الإسلامية، في فتراتها المبكرة والوسيطة، ولكن في لحظتنا الراهنة، وفي واقعنا الحضاري المهترئ والمتآكل، يُعد الفقه على السُّنن –فهماً وتسخيراً وممارسة– مدخلاً مهماً جداً للنهضة الحضارية المتوازنة.

[9] برغوث، الطيب. **الفعالية الحضارية والثقافة السُّننية**، ط1، كوالالمبور: آسليتا سيندرين برحاد، 2002م، ص27-28.

مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾ (الإسراء: 77) وقد أكد ابن خلدون، في معرض حديثه عن التاريخ والعمران وسننه، كيف أن العالم والبشر محكمون بهذه السُّنن الثابتة والمطّردة، وخاضعون لها بشكل صارم ودقيق في تقلباتهم وأحوالهم، وما يعرض لهم من الاختلافات عبر الزمن، فهو يقول: "إن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم، لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة، وانتقال من حال إلى حال. وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول، سُنة الله التي قد خلت في عباده."[10]

إن خلق الإنسان بقدرتي التعقل والاختيار، وخلق الكون، وتدبير حركته وجريان أموره وفق موازين مقدرة، مصدقاً لقوله تعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ (الفرقان: 2)، يدل دلالة واضحة على أن قضية السُّنن أصل من أصول العمران الإنساني، الذي دونه تنخرم حركة الاستخلاف، وتتغبش الرؤية الكونية الإنسانية، وتضطرب موازين الأفعال الحضارية والعمرانية المطلوبة لتحقيق الاستخلاف، وحمل الأمانة[11] التي كُلف بها الإنسان، الذي أُعطي قدرتي التعقل والاختيار، بوصفهما المفتاحين الضروريين لفهم السُّنن وتسخيرها في الفعل الاستخلافي، المحقق لشروط بناء حضارة وعمران إنساني متوازن، ومتكامل، ومتوافق مع هذه السُّنن الإلهية التي "لها صفة العموم والشمول، كما أن لها صفة الثبات والدوام."[12]

والسُّنن الإلهية، بوصفها تجلياً من تجليات القدرة والحكمة والإرادة الإلهية، في ضبط موازين الحياة والوجود الكوني والبشري، تُعد من أهم ما دعا إليه الإسلام؛[13] إذ شغلت

---

[10] ابن خلدون، **المقدمة**، ج1، ص320.

[11] يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: 72].

[12] القرضاوي، يوسف. **العقل والعلم في القرآن الكريم**، القاهرة: مكتبة وهبة، 1996م، ص 279.

[13] ينبغي هنا أن يكون جلياً أن الإيمان بوجود السُّنن، وأنها مطّردة وتحكم حركة التاريخ والفعل الحضاري، لا يكفي لإدراك حقيقتها ووظيفتها الحضارية والاستخلافية؛ إذ المطلوب هو بناء الوعي عليها وتشكيل الثقافة=

هذه القضية حيزاً كبيراً جداً من توجيهات القرآن الكريم، وبشكل يوحي أن السُّنن هي مدار الوعي الإنساني والمشروع الاستخلافي. فسواء، أكان توجيه القرآن خاصاً بالتاريخ، أم الأمم الماضية أم المجتمع أم الأسرة أم العمران أم الدين أم الأخلاق أم القيم أم الكون أم الآيات الإلهية في الآفاق والأنفس أم قضايا الشريعة والفقه أم القضايا الأخرى، فإن القرآن الكريم يؤشر دوماً على السُّنن والقوانين، ويحث على اكتشافها والتوافق معها وتسخيرها، ويُحذر من التصادم معها وتجاوزها في الأفعال والأقوال والمواقف والسلوكيات. يقول ابن القيم الجوزية: "فالقرآن من أوله إلى آخره، صريح في ترتيب الجزاء بالخير والشر والأحكام الكونية والأمرية على الأسباب، بل في ترتيب أحكام الدنيا والآخرة ومصالحهما ومفاسدهما على الأسباب (السُّنن) والأعمال."[14]

إن الباحث المنصف والمستكشف للرؤية القرآنية المتعلقة بالسُّنن الإلهية، لا يستطيع إلا أن يُقرَّ ويعترف بانضباطها وجريانها بشكل دقيق ومقدر، بصورة لا يمكن معها إلا بالتسليم بوجود إرادة فاعلة، وقدرة هائلة، تنظم كل شيء وتسيره وفق نسق دقيق، ومقاييس مقدرة ومحسوبة، بصورة لا فطور ولا اختلال فيها أبداً، تصديقاً لقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ﴾ (الملك: 3). فكل هذا النظام السُّنني الذي يحكم الكون وحركة الخلق، يرجع إلى الحق تبارك وتعالى.

يجب أن يكون واضحاً أن الحديث عن السُّنن في هذا السياق له وجهان على الأقل؛ الوجه الأول: ارتباط السُّنن بالخالق سبحانه وتعالى، فعندما ننظر إلى السُّنن سواء التاريخية أو الكونية أو الدينية، على أنها من خلق الله سبحانه وتعالى وإرادته ومشيئته

---

=الاستخلافية التي تستوعبها وتتفاعل معها فهماً وتسخيراً فعلياً. أي أن تصبح السُّنن جزءا من ثقافة الفرد ووعيه وشخصيته ورؤيته للعالم والأحداث والوقائع، وتخطيطيه لفعله العمراني والاستخلافي. فما لم تتحول السُّنن إلى وعي وثقافة وقدرة تسخيرية تساعد على تحقيق مشروع الاستخلاف واقعياً، فإنها تبقى معطى قدرياً وإيمانياً يؤمن به الفرد فحسب، دون أن ينفذ إليه ويستوعبه بوصفه قوة وسلطان للتسخير والتفاعل مع التاريخ والكون.

[14] ابن القيم الجوزية، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر. **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي**، دار الهدي لطبع والنشر، د.ت، ص 16-17.

وتدبيره، فإننا نتحدث عن النظام الإلهي الكامل والمتناسق، الذي يجري في ظواهر الكون والتاريخ بصورة دقيقة ومنسجمة، لا فطور فيها. وهنا ينبغي في البحوث المتقدمة في مجال الفقه السُّنني أن تُحلل معرفياً ومنهجياً هذا النظام الإلهي المحكم، لاكتشاف التشابكات والصلات المتداخلة بين السُّنن المتعلقة بالكون والآفاق، والسُّنن المتعلقة بالتاريخ والاستخلاف والإنسان، والسُّنن المتعلقة بالهداية والدين، وبيان كيف تتداخل وتتفاعل بشكل متناغم لتعبر عن النظام والتناسق في حركة الظواهر الكونية والتاريخية والدينية. مع إدراك أن السُّنن في كل مجال من هذه المجالات لها صفاتها وخصائصها وآليات عملها ومناهج كشفها.

والوجه الثاني: الإدراك البشري، فعندما ننظر إلى السُّنن من منظور بشري على اختلاف الرؤى الكونية والتصورات الحياتية من التصور التوحيدي الخالص إلى التصورات المادية والوضعية والوجودية، فإن بعض الناظرين قد يرى السُّنن معضلة أو مشكلة وجودية، وقد يحولها بعضهم إلى تتابع دوري للأحداث، وقد يحولها بعضهم الآخر إلى مسلمة إيمانية أو قدر أو أمر طبيعي، أو غيرها. ومن هنا ينبغي التأكيد على أن الرؤية التوحيدية القرآنية تساعدنا على أن نفهم السُّنن وطبيعتها ووظيفتها الاستخلافية الحضارية، وموقعها في وعي الإنسان وممارساته التاريخية، فنعلم يقيناً أن هذه السُّنن بمختلف أصنافها: في الكون، وفي التاريخ، وفي الهداية، سُخرت لصالح الإنسان ليفقهها، ويوظفها في الارتقاء المعرفي والروحي والعمراني والاستخلافي والنفاذي إلى أقطار السموات والأرض بسلطان الوعي السُّنني المهتدي بتوجيهات الوحي وتعاليمه.

وبهذا يتجنب الإنسان فوضى تسلط القوى الطبيعية عليه، وفوضى تجاوزه هو لقدراته وحدوده، كي لا يضع نفسه في محل لا يقدر على أن يتفاعل فيه من أجل الترقي الاستخلافي الحقيقي المتوازن، الذي تتكامل فيه هدايات الوحي وسلطان العقل المرشد. وفي ضوء الرؤية التوحدية القرآنية يكون الاشتغال بالسُّنن من وجهها الأول، مؤدياً إلى معرفة جانب الإرادة والمشيئة والتدبير الإلهي المحكم، وإلى الزيادة في الإيمان بالله سبحانه وتعالى، من خلال التعرف على الدقة والنظام والتوازن والتناغم في الخلق، وجريان الوقائع

والأحداث؛ فيكون بذلك اتصال الإنسان بخالقه أقوى وأعظم، وخاصة عند اشتغاله بالوجه الثاني من السُّنن المتجلية في عالم الظاهرات، وفي أحداث التاريخ. فالرؤية القرآنية للسُنن تنشئ الوعي المتفاعل بين الوجهين معاً، مما يكون دافعاً ومحفزاً على التفاعل التسخيري في واقع الفعل الحضاري.

إن هذا التحديد ضروري لكي لا نقع في الخلط، عندما نرى في تاريخ الإنسان وحضارته الفوضى والقتل وسفك الدماء، فنستدل بذلك على عدم وجود النظام والسنة والقانون في التاريخ والفعل الحضاري. والشيء نفسه عندما نرى الظواهر الطبيعية من الزلازل والفيضانات والبراكين والأمراض، فنستدل بذلك على عدم وجود النظام أو السنَّة أو القانون في الكون والطبيعة. فوجود هذه الأمور سواء التاريخية الاستخلافية أو الكونية الطبيعية، يعبر عن التدبير الإلهي للكون والتاريخ، وأن سنة الابتلاء ستجري وستتم عبر هذه الوسائط. ولا يعني ذلك مطلقا سيادة الفوضى في الخلق والكون والتاريخ. بل يعني أن الإنسان يتفاعل وهو محكوم بسنن الكون وسنن التاريخ، ويكون نجاحه وتوازنه وتكامل حركته، بمقدار ما يستوعب ويدرك من هذه السُّنن والقوانين ويسخرها بالطريقة السليمة الصحيحة. وهنا تظهر القيمة الكبرى والدور الحيوي الفاعل الذي يوليه الإسلام للعقل المرُشّد بالوحي، والذي يُناط به كشف هذه السُّنن والنفاذ إليها بقوة ويقين، وتسخيرها للترقي في مستويات الاستخلاف والتحضر المتوازنة والمستجيبة لحاجات الإنسان وقدراته الخارقة على التفاعل التسخيري.

ومن هنا فإن كل شيء في الوجود والكون المشهود يسير بانضباط، ويجري بانسيابية وفاعلية وتكاملية مطّردة، لا تخفي ما ورائها من حكمة إلهية بالغة، وإرادة ربانية نافذة، وإحاطة بالغة بشؤون الخلق في مختلف ساحاته. يقول باقر الصدر: "هذا التأكيد من القرآن على ربانية السُّنة التاريخية، وطابعها الغيبي، يستهدف شدّ الإنسان، حتى حينما يريد أن يستفيد من القوانين الموضوعية للكون، بالله سبحانه وتعالى. وإشعار الإنسان بأن الاستعانة بالنظام الكامل لمختلف الساحات الكونية، والاستعانة بمختلف القوانين والسُّنن التي تتحكم في هذه الساحات، ليس ذلك انعزالاً عن الله سبحانه وتعالى، لأن الله يمارس قدرته من خلال هذه السُّنن. ولأن هذه السُّنن هي إرادة الله، وهي ممثلة

لحكمة الله وتدبيره في الكون."[15]

ومن ثم فإن صلة الخلق بهذا النظام السُّنني، وطبائع هذا البناء الرباني المتقن، تؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن الخالق واحد، وأن كل شيء يرجع إليه، ويفتقر إلى حكمته وقدرته ومشيئته وعلمه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ (البقرة:210). وفي هذا السياق يقول ابن خلدون "إن كل حادث من الحوادث ذاتاً كان أو فعلاً، لا بد له من طبيعة تخصه في ذاته فيما يعرض له من أحواله...إن الحوادث في عالم الكائنات سواء من الذوات أو من الأفعال البشرية أو الحيوانية، لا بد لها من أسباب متقدمة عليها، بها تقع في مستقر العادة، وعنها يتم كونها، وكل واحد من تلك الأسباب حادث أيضا فلا بد له من أسباب أخر، ولا تزال تلك الأسباب مرتقية حتى تنتهي إلى مُسبِّب الأسباب ومُوجِدها وخالقها لا إله إلا هو."[16]

وتأسيساً على الرؤية أو المقاربة الحضارية التي يتبناها البحث، يُعد مفهوم السُّنن الإلهية، ووظيفتها، وموقعها من ظواهر الحياة والاستخلاف والعمران، من المفاهيم المركزية التي تأسست عليها نظرة القرآن الكريم للوجود والكون والحياة والإنسان والاستخلاف. والرؤية القرآنية للخلق عموماً، والاستخلاف خصوصاً، نظرة سُننية[17] خاضعة لموازين ومقاييس، ومعايير إلهية محكمة ومطّردة في الواقع، منذ ظهور النشاط الاستخلافي على وجه الأرض مصدقاً لقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلآئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي

---

[15] الصدر،محمد باقر. **المدرسة القرآنية: سنن التاريخ في القرآن**، ط2، بيروت: دار التعارف للمطبوعات، 1981م، ص 78.

[16] ابن خلدون، **المقدمة**، ج1، ص 329 وج2، ص 1069.

[17] ينطلق البحث من فرضية أن الفقه على السُّنن وعلى الرؤية القرآنية للسُنن يمثل مدخلا من المداخل المهمة لحل مشكلات الأمة. ومشكلة الأمة الأساسية في بعض مظاهرها ناتجة عن غياب الفقه على السُّنن الإلهية في الاجتماع والعمران بوصفه وعياً وثقافة وقدرة وممارسة وأداة تسخيرية فعالة. ومن هنا فامتلاك هذا الفقه والوعي ضروري للفعل الحضاري. وغياب هذا الفقه هو المعضلة التي ينبغي تناولها بالتحليل.

أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:30). وكون الإنسان خليفة لله يندرج في سياق تأهيله الإلهي، ليكون قادراً على حمل رسالة الاستخلاف، وتحقيق أقصى مستويات الفعالية والمردودية في إنجازها واقعيا. ويتجلى الإنجاز الفعلي لمشروع الاستخلاف على المستوى الاجتماعي، في صورة حضارة وعمران بشري يكون في مستوى هذا المشروع الذي تحددت معالمه، وتأسست مناهجه في ضوء الرؤية القرآنية التوحيدية للحياة والوجود. ومما تأهل به الإنسان لحمل رسالته الاستخلافية، امتلاكه للقدرات العقلية والفكرية والحسية على تعقل الأسباب، والتفاعل مع العالم الخارجي من خلال السُّنن التي تحكمه، وتنظم سائر شؤونه وفق إرادة الله العليا ومشيئته النافذة، وقوته المدبرة.

والإنسان يحصل من التوفيق والتأييد والقدرة على التسخير والتجسيد لمشروع الاستخلاف، بمقدار ما يستوعبه، مما أودعه الله سبحانه وتعالى فيه من قدرات على الفهم والعمل؛ سواء القدرات التي تتصل بالجوانب الروحية والغيبية والتأييدية الإلهية، أو القدرات الحسية والجسدية والأدائية التي يكتسبها، بوصفه إنساناً يعيش في وسط اجتماعي وثقافي وحضاري. وكذلك بما يعينه الله سبحانه وتعالى به، من الارتقاء في مراتب العدل، والإحسان، والحرية، والتعاون، والمعروف، وغيرها. يقول الوزير: "وبقدر إحراز أية أمة لفهم أكبر لتسخير السُّنن الكونية والاستفادة منها، وتطبيق أدق لها، تتبوأ مكانتها على الأرض...فينتفع منها بقدر ما أتيح له من قدرة على التعلم والتعرف على السُّنن، والكشف عن قوانينها والتقدم الدائم والمستمر في آفاقها ومجالاتها."[18] ومن هنا ينبغي أن يكون واضحاً بأن كمال الأمم والأفراد، هو أن يجمعوا في وعيهم وقدراتهم بين فقه السُّنن وتطبيقاتها، لأنه على أساسها تكون الحياة الطيبة المطمئنة، للفرد والجماعة على هذه الأرض، والسعادة الأبدية في الدار الآخرة.[19] ويقرر محمد عبده سُنَّة تاريخية اجتماعية عامة هي: "من يطلب السعادة في هذا الاجتماع أن ينظر في أصول هذا النظام حتى يرد إليها

---

[18] الوزير، إبراهيم علي. **على مشارف القرن الخامس عشر الهجري: دراسة للسنن الإلهية والمسلم المعاصر**، ط7، واشنطن: منشورات كتاب واشنطن، 2000م، ص 30.

[19] الوزير، إبراهيم علي. **المرجع السابق**، ص 33.

أعماله، ويبني عليها سيرته، وما يأخذ به نفسه، فإن غفل عن ذلك غافل فلا ينتظر إلا الشقاء، وإن ارتفع إلى الصالحين نسبه، أو اتصل بالمقربين سببه. فمهما بحث الناظر، وفكّر، وكشف، وقرر، وأتى لنا بأحكام تلك السُّنن، فهو يجري مع طبيعة الدِّين، وطبيعة الدِّين لا تتجافى عنه، ولا تنفر منه."[20]

## ثانياً: ملاحظات حول تناول قضية السُّنن من خلال الفكر الإسلامي المتقدم

### 1- التناول اللغوي لمفهوم السُّنن الإلهية

بالرجوع إلى بعض قواميس اللغة المعتمدة، يعثر الباحث على تعريفات وتحديدات متعددة لمفهوم السُّنن. والملاحظ أن التركيز في تعريف السُّنن يكون على لفظ "السُّنة". فعلى سبيل المثال ذكر ابن منظور في تعريفه لسنة الله قوله: "وسُنة الله: أحكامه وأمره ونهيه."[21] وهنا يركز التحديد اللغوي على معنى الحكم الإلهي أمراً ونهياً، وبالتالي فإن المعنى اللغوي يسلط الضوء أكثر على الدلالة الشرعية لمعنى السُّنة بوصفها ما وضعه الحق تبارك وتعالى من أحكام شرعية، وما أنزله في وحيه من أوامر ونواهٍ. ومن ثم ينبغي ملاحظة أن معنى السُّنة بمفهومه التاريخي، أو بمفهومه الكوني، أو بمفهومه الاجتماعي العمراني، غير مشمول بالتحديد المذكور. وأما الفيروزآبادي فعرّف السُّنة بقوله هي: "السيرة والطبيعة. وسنة الله: حكمه وأمره ونهيه. وسنن الطريق: نهجه وجهتُه."[22] وقد أضاف الفيروزآبادي بُعداً آخر في تحديده لمفهوم السُّنة على ما ذكره ابن منظور. فالحديث عن السُّنة بوصفها الطبيعة، يجعلها ذات صلة بالخلقة وبالفطرة، وبالطريقة التي خلق الله عليها الخلق، وبالنظام الذي خلقوا على مِنواله. كما يؤكد كذلك على أن السُّنة هي النهج، وهذا بُعدٌ مهم في تحديد مفهومها، والنهج هو الطريق أو السبيل المتبع للقيام

---

[20] عبده، محمد. **الإسلام دين العلم والمدنية**، تحقيق: عاطف العراقي، القاهرة: دار قباء، 1998م، ص 132.

[21] ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي. **لسان العرب**، بيروت: دار صادر، د.ت، ج13، ص 225-226.

[22] الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب بن محمد. **القاموس المحيط**، بيروت: مؤسسة الرسالة 1986م، ص 1558.

بفعل ما. ويعرّف الراغب الأصفهاني السُّنة[23] بقوله: "فالسُّنن: جمع سنة...وسنة النبي طريقته التي كان يتحرها، وسنة الله تعالى: قد تقال لطريقة حكمته وطريقة طاعته، نحو: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (الفتح:23). وقوله تعالى: ﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ (فاطر:43)، تنبيه على أن فروع الشرائع وإن اختلفت صورها، فالغرض المقصود منها لا يختلف ولا يتبدل، وهو تطهير النفس، وترشيحها، للوصول إلى ثواب الله تعالى وجواره."[24] فههنا تنبيه على أمرين مهمين في تفهم معنى السُّنة الإلهية. أولهما؛ هو طريقة حكمة الله تعالى التي أحكم بها هذا الصنع، وجعله محكماً متقناً. وثانيهما؛ هو طريقة طاعته، أي المنهج الذي وضعه الحق للخلق، لكي يعرفوا السبيل القويم لطاعته، واتباع أوامره ونواهيه في الشريعة والأحكام الموحاة،[25] بوصفهم مكلفين بالخطاب الإلهي.

ومن جهة أخرى نجد عند ابن فارس إشارة أخرى ذات أهمية في استجلاب معنى السُّنن الإلهية[26] يقول: "إن السين والنون أصل واحد مُطّرد، وهو: جريان الشيء واطراده في سهولة."[27] إن هذا التحديد يبين واحدة من أهم خصائص السُّنن، وهي أطرادها

---

[23] راجع كذلك:=

- =الفيومي، أحمد بن محمد بن علي. **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي**، ط6، القاهرة: المطبعة الأميرية، 1926م، ج1، ص 396؛

- الزمخشري، محمود بن عمر بن محمد. **أساس البلاغة**، بيروت: دار الفكر، د.ت، ص310.

[24] الإصفهاني، الراغب. **مفرادات ألفاظ القرآن**، تحقيق: صفوان داوودي، بيروت: الدار الشامية، 1992م، ص429.

[25] انظر هنا رأي الشاطبي الذي يقول: "إن الكتاب دال على السُنة وإن السُنة إنما جاءت مبينة له، فذلك بالنسبة إلى الأمر والنهي والإذن أو ما يقتضي ذلك، وبالجملة يتعلق بأفعال المكلفين من جهة التكليف". انظر:

- الشاطبي، أبو اسحاق. **الموافقات في أصول الشريعة**، القاهرة: دار الفكر العربي، د.ت، ج4، ، ص 55.

[26] الحديب، عبد الله بن ناصر . السُّنن الإلهية في تفسير الأحداث التاريخية، **مجلة الجندي المسلم**، التاريخ: 2003/08/01، محور: سيرة وتاريخ، المملكة العربية السعودية.

[27] ابن فارس، أحمد. **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1981م، ج3، ص60.

وثباتها وجرياتها، بوصفها نظاماً محكماً يسير في سهولة وإتقان متماسك. ومن هنا يتضح أن بعض أهل اللغة، أفادوا بأن معاني السُّنة الإلهية، تدور حول طريقة طاعته سبحانه وتعالى، ونهجه، وخلقه المحكم، وأمره ونهيه، ونظام خلقته المطردة. وزاد الأزهري للسُّنة معنى آخر حينما قال: "السُّنة الأصل: سنة الطريق، وهو طريق سنه أوائل الناس فصار مسلكا لمن بعدهم. وسنَّ فلان طريقاً من الخير يسنّه: إذا ابتدأ أمراً من البَرّ لم يعرفه قومه، فاستنوا به وسلوكه. وهو يستن الطريق سنّاً وسننا."[28] فهنا تركيز على معنى السيرة والطريقة والسُّنة المتبعة والمثال المحتذى. وتأتي السُّنة كذلك بمعنى العادة التي تعني "ما يديم الإنسان فعله من قبل نفسه، والسُّنة تكون على مثال سبق."[29]

## 2- التناول التفسيري لمفهوم السُّنن الإلهية

إذا كان التحليل اللغوي، متوجهاً نحو تعريف السُّنة بوصفها أحكام الله، وشريعته، والسيرة والطبيعة والنهج، وسنة النبي عليه الصلاة والسلام، وطريقة حكمة الله وطريقة طاعته، وجريان الشيء واطّراده، فإن التناولات التفسيرية لا تبتعد كثيرا عن هذا المنحى. ولهذا فإن هناك في التراث التفسيري آراء بعض المفسرين القدماء والمعاصرين، ومحاولتهم لبيان بعض الآيات القرآنية التي وردت فيها لفظة السُّنة، أو تحديد مفهوم السُّنن الإلهية، من خلال النظرة الكلية العامة في القرآن الكريم ودلالته. ومن بين أهم الدلالات التي

---

[28] ابن الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد، **تهذيب اللغة**، تحقيق: عبد السلام هارون ومحمد علي النجار، القاهرة: الدار المصرية للتأليف والنشر، د.ت، ج12، ص 298، مادة "سنن". انظر في معنى السنة لغة، كذلك مادة سنن:

- الزبيدي، محمد المرتضى.(ت 1205هـ)، **تاج العروس من شرح جواهر القاموس**، بيروت: دار الجيل، بدون تاريخ،
- الفيومي، أحمد بن محمد، (ت 770هـ)، **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي**، بيروت: المكتبة لعلمية، د.ت،
- ابن المطرز، أبو الفتح ناصر الدين. (ت 610هـ)، **المغرب في ترتيب المعرب**، تحقيق: محمود فاخوري وعبد الحميد مختار، ط1، حلب: مكتبة أسامة بن زيد، 1979م.

[29] العسكري، أبو هلال. **الفروق في اللغة**، ط7، بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1991م، ص230.

وردت في هذا السياق رأي الإمام الطبري في قوله إنها: "المثال المتبع، والإمام المؤتم به يقال منه: سَنّ فلان فينا سُنّة حسنة، وسَنّ سنة سيئة: إذا عمل عملاً اتُبع عليه من خير أو شر."[30] ففي هذا التحديد يُفترض أن يكون هناك مثال ونموذج يقاس عليه ويحتذى به. وكأنه يريد بالسُّنن أن ترسم للإنسان الصورة والهيئة والمثال الذي ينبغي اتباعه والتمثل به، واتخاذه قدوة يؤتم بها ويُعمل على منوالها. وذهب الإمام الرازي إلى القول بأن السُّنة تأتي بمعنى: "الفعل الذي داوم عليه النبي صلى الله عليه وسلم سمي سُنّة، بمعنى أنه أحسن رعايته وإدامته."[31] فعلى الرغم من ربطه لمعنى السُّنة بعمل النبي عليه السلام، إلا أنه أضاف معنىً مهماً، وهو إحسان الرعاية والمداومة على الشيء. وهذا في الحقيقة يجلي اثنتين من خصائص السُّنن كما هي متعارف عليها عند المختصين؛ وهما: خاصية الإتقان والإحسان والإجادة والرعاية في هذا الصنع الإلهي المتقن، وخاصية المداومة التي تؤدي إلى اطّراد الشيء واستمراره وحضوره في حياة الإنسان. وذهب الزمخشري إلى القول، في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ[32] فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ (فاطر:43)، إن معناها هو "إنزال العذاب على الذين كذبوا برسلهم من الأمم قبلهم. جعل استقبالهم لذلك انتظاراً له منهم، وبيّن أن عادته عادة لا يبدلها ولا يحولها."[33]

وهذا ما مال إليه كذلك ابن عطية في تفسيره لقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾ (الإسراء:77)؛ إذ قال: "سنة الله تعالى في الأمم الخالية وعادته، أنها إذا أخرجت من بين أظهرها نالها العذاب، واستأصلها الهلاك،

---

[30] الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، تحقيق: صدقي جميل العطار، بيروت: دار الفكر، 1999م، ج4، ص133.

[31] الرازي، فخر الدين. **التفسير الكبير**، دار الغد: دون مكان النشر، 1991م، ج4، ص462.

[32] القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد.(ت 671هـ)، **الجامع لأحكام القرآن**، بيروت: دار الكتاب العربي، 1952.

[33] الزمخشري، محمود بن عمر. **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، بيروت: مطبعة مصطفى الحلبي البابي، 1972م، ج3، ص312.

فلم تلبث بعده إلا قليلا."[34] وهو المنحى نفسه الذي اتجهه أبو حيان؛ إذ قال:"ولن تجد لما أجرينا به العادة تحويلا منه إلى غيره، إذ كل حادث له وقت معين وصفة معينة."[35] ولكن من الأهمية هنا التنبيه إلى إشارته لمسألة الوقت، والصفة المعينة التي تجري عليها عادة الله وسنته. فهنا تنبيه إلى قضية التقدير المحكم والدقة والإتقان والهيئة، التي تجري بها سُنة الله وتطّرد في الحياة والواقع. ولا يختلف كثيراً الإمام الألوسي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ (الحجر:13) عن الذين قالوا بأن السُّنة هي العادة المعلومة؛ إذ يقول: "المراد هو عادة الله تعالى فيهم."[36] وأما الإمام ابن كثير، فقد نزع إلى القول بأن السُّنة الإلهية هي الطريقة والشريعة الإلهية. فقد ذكر في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (النساء:26) أن السُّنة "تعني طرائقهم الحميدة واتباع شرائعه التي يحبها ويرضاها."[37] وأما الإمام البغوي فقال في قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (آل عمران:137)، وقال الكلبي: لكل أمة سنة ومنهاج إذا اتبعوها رضي الله عنهم، وقال مجاهد: قد خلت من قبلكم سنن الهلاك فيمن كذب قبلكم...والسُّنة: الطريقة المتبعة في الخير والشر."[38] وذكر ابن حزم الأندلسي في السياق ذاته أن "السُّنة هي الشريعة نفسها."[39]

---

[34] ابن عطية، محمد بن عبد الحق. **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط1،بيروت: دار الكتب العلمية، 1993م، ج3، ص57.

[35] أبو حيان، أثير الدين محمد. **البحر المحيط في تفسير القرآن**، ط2، القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، 1992م، ج6، ص67.

[36] الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين. **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، ط4 بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1985م، ج4، ص65.

[37] ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل. **تفسير القرآن العظيم**، بيروت: دار مكتبة الهلال، 1986م، ج2، ص51.

[38] الفراء، أبو محمد الحسين بن مسعود. **معالم التنزيل في التفسير والتأويل**، بيروت: دار الفكر، 1985م.

[39] الظاهري، ابن حزم. **الإحكام في أصول الأحكام**، ضبط وتخريج: محمد محمد تامر، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 2004م، ج1، ص57.

## 3- تناول قضية السُّنن من خلال بعض العلوم الشرعية

وفي هذا المعنى ظهرت العديد من التعريفات الأصولية والفقهية والحديثية. ومن التعريفات التي ذكرها علماء الحديث للفظة "السُّنة" قولهم: إنها ما ورد أو أُثر عن النبي عليه الصلاة والسلام من قول، أو فعل، أو تقرير، أو صفة خلقية، أو خلقية أو سيرة...أو إشارة منه، أو ما هَمّ به سواء كانت قبل البعثة أو بعدها.[40] ومن تعاريف علماء الأصول للسُّنة بوصفها المصدر الثاني للتشريع قولهم إنها: ما صدر عن الرسول صلى الله عليه وسلم من فعل، أو قول، أو تقرير بعد بعثة الرسول.[41] ومن الذين ركزوا على كون السُّنة هي المصدر الأساسي الثاني للتشريع، وقعدّوا لهذه المسألة بطريقة منهجية، الإمام محمد بن إدريس الشافعي القائل: "ليس لأحد أبداً أن يقول في شيء حَلّ ولا حَرُمَ إلا من جهة العلم، وجهة العلم الخبر في الكتاب، أو السُّنة، أو الإجماع، أو القياس."[42] وأما علماء الفقه فقد نظروا إلى السُّنة النبوية على أنها: ما ثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم من غير افتراض ولا وجوب، وتقابل الواجب وغيره من الأحكام الخمسة[43]...وتأتي كذلك بمعنى "ما يحمد فاعله ولا يذم تاركه."[44] وذهب بعض المتكلمين إلى القول بأن السُّنة هي آراء أهل السُّنة والجماعة[45] المتمسكين بأصول العقيدة

---

[40] انظر على سبيل المثال:

- الشوكاني، محمد بن علي. (ت 1250هـ)، **إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول**، تحقيق: محمد سعيد البدري، ط1، بيروت: دار الفكر، 1992م، ج1، ص 68؛
- القاسمي، جمال الدين (1866م-1914م). **قواعد التحديث في فنون مصلح الحديث**، تحقيق: محمد بهجة البيطار بيروت: دار النفائس للطباعة، 2001م، ص 61-62؛
- السباعي، مصطفى. **السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي**، ط2، دمشق: المكتب الإسلامي، 1978م، ص47.

[41] الإيجي، عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد. (ت 756هـ)، **شرح مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه**، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، 1973م، ج2، ص 22.

[42] الشافعي ، محمد بن إدريس. **الرسالة**، شرح وتعليق: عبد الفتاح كبار، بيروت: دار النفائس، 1999م، ص39.

[43] الشوكاني، محمد بن علي [ت 1250هـ]، **إرشاد الفحول**، مرجع سابق، ج1، ص68.

[44] البيضاوي، ناصر الدين عبد الله بن عمر .[ت 685هـ]، **منهاج الوصول في علم الأصول**، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1984م، ص50.

[45] عاشور، مجدي محمد محمد. **السُّنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم: أصول وضوابط**، إشراف:

الإسلامية الصحيحة التي أثرت عن السلف الصالح. "وبأضيق من هذا يستعملونها في المعنى المقابل لما عليه بعض الفرق المخالفة لما ورد عن السلف في بعض الأمور العقدية، فيقولون: أهل السُّنة ويقابلهم المعتزلة أو الجبرية أو المجسمة."[46]

ومن جهة أخرى، ذهب الإمام مالك، في معرض حديثه عن عمل أهل المدينة ومدى إلزاميته[47] في التأسي والاتباع، إلى تأكيد كون السُّنة تعني ما جاء به النبي، صلى الله عليه وسلم وأصبح جزءاً من ممارسة الصحابة والتابعين وتوارثوه، حتى أصبح قسماً معتبراً من حياتهم وتشريعهم وواقعهم. وعليه ينبغي اتباعه والأخذ به والاقتداء به، لا سيّما ذلك الذي أُثر عن أهل المدينة الذين عايشوا الرسول، وأخذوا عنه، وتربوا في كنف دعوته وتوجيهاته، ثم تناقلوا تلك الأفعال والأقوال وورثوها للأجيال اللاحقة. وفي الرسالة التي أرسلها مالك بن أنس إلى الليث بن سعد تنبيه إلى مسألة عمل أهل المدينة، على اعتبار أنهم ورثوا سنة الرسول وأصحابه، وأصبحت جزءاً من واقعهم وأفعالهم وكيانهم الفردي والاجتماعي، فالناس: "تبع لأهل المدينة، إليها كانت الهجرة وبها نزل القرآن وأُحل الحلال وحرم الحرام؛ إذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم يحضرون الوحي والتنزيل ويأمرهم فيتبعونه، ويسنّ لهم فيتبعونه، حتى توفاه الله واختار له ما عنده صلى الله عليه وسلم، ثم قام من بعده أَتبعُ الناس له من أمته مِمّن وُلّي الأمر من بعده، فما نزل بهم مما علموا، أنفذوه وما لم يكن عندهم علم فيه، سألوا عنه...ثم كان التابعون من بعدهم

---

مصطفى محمد الشكعة، تقديم: علي جمعة، ط1، القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، 2006، ص29.

[46] الشكعة، مصطفى. **إسلام بلا مذاهب**، ط12، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 1996م، ص15.

[47] هناك من خالف هذا الرأي للإمام مالك، انظر:

- ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر. [ت 751هـ]، **أعلام الموقعين عن رب العالمين**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط2 (بيروت: دار الفكر، 1977م)، ج 3، ص 83-84؛
- أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري [113هـ-182هـ]، **الرد على سير الأوزاعي**، تصحيح وتعليق: أبو الوفاء الأفغاني، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت، ص 11؛
- الشيباني، محمد بن الحسن. [ت 189هـ]، **موطأ الإمام مالك رواية محمد بن الحسن الشيباني**، تعليق وتحقيق: تقي الدين الندوي، ط3، الهند: الجامعة الإسلامية، 1999م، ج3، ص 338.

يسلكون تلك السبيل ويتبعون تلك السُّنن"[48] فالسُّنة هنا تفيد معنى التأسي والاتّباع، وتفيد معنى السبيل والطريق التي أثرت عن النبي في أقواله وأفعاله وتقريراته.

وفي معرض تقسيمه لأنواع السُّنة، ومدى صلتها بالوحي، أكد الإمام ابن قتيبة على مسألة أهمية السُّنة، بوصفها مصدراً للتشريع، وكونها تصدر عن رسول معصوم، ومهدي من قبل الله سبحانه وتعالى، فقال: "سُنة أتاه بها جبريل عليه السلام عن الله تعالى كقوله صلى الله عليه وسلم: "نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن تنكح المرأة على عمتها وخالتها"[49] و"إن الله حرّم من الرضاع ما حرم من النسب"[50] والسُّنة الثانية، سنة أباح الله له أن يسنّها، وأمره باستعمال رأيه فيها، فله أن يترخص فيها لمن يشاء، على حسب العِلة والعُذر، كتحريم الحرير على الرجال، وإذنه لعبد الرحمن بن عوف فيه لِعلة كانت به. والسُّنة الثالثة: ما سنّه لنا تأديباً، فإن فعلناه كانت الفضيلة، وإن تركناه فلا جناح علينا إن شاء الله، كأمره في العمَة بالتلحي، ونهيه عن لحوم الجلالة، وكسب الحجام."[51] وهنا تتضح حقيقة السُّنة النبوية وأهميتها، سواء في مجال التشريع، أو في مجال التأسي والاتّباع للرسول صلى الله عليه وسلم.

وعندما نتأمل بعض الأحاديث النبوية، التي وردت فيها لفظة سنّة أو سنن، فإننا نجدها تدور حول الطريقة والنهج والسبيل والعادة الحسنة. فمثلا جاء معنى السُّنة في حديث حذيفة بن اليمان، على أنها الاستنان بسنّة النبي أي طريقته ونهجه: "كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير وكنت أسأله عن الشر، مخافة أن يدركني فقلت: يا رسول الله إنّا كنّا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير شر، قال نعم. فقلت: هل

---

[48] ابن عياض، أبو الفضل عياض بن موسى. **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**، تحقيق: أحمد بكير محمود، بيروت: دار مكتبة الحياة، د، ت، ج1، ص64-65.

[49] البخاري، محمد بن إسماعيل. **صحيح البخاري**، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، المنصورة: مكتبة الإيمان، 2003، حديث رقم، 5108، ص1088.

[50] الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى. **الجامع الصحيح**، ط3، دمشق: دار الفكر، 1978، حديث رقم 1156، ج2، ص306.

[51] الدينوري، ابن قتيبة. **تأويل مختلف الحديث**، بيروت: دار الجيل، 1972م، ص196-197.

بعد ذلك الشر من خير، قال نعم وفيه دخن. قلت وما دخنه قال: قوم يستنّون بسنتي، ويهدون بغير هدي، تعرف منهم وتنكر"[52]؛ وجاء هذا المعنى نفسه في حديث رواه العرباض بن سارية.[53] ومما جاء فيه "... فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضّوا عليها بالنواجذ."[54] وغيرها من الأحاديث.[55]

ووردت كذلك لفظة السُّنة في الأحاديث النبوية بمعنى التوازن والتيسير والابتعاد عن التشدد والترفق في الأمر. وذلك في مثل قوله صلى الله عليه وسلم: "...أنتم الذين قلتم كذا وكذا. أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر وأرقد وأتزوج النساء، فمن رغب عن سُنتي فليس مني،"[56] وجاءت بمعنى العادة والمذهب والأسلوب الذي جرت عليه الأعمال، ويظهر هذا في ما ذكره البخاري في باب من أجرى أمر الأمصار على ما يتعارفون بينهم في البيوع والإجارة والوزن وسننهم على نياتهم ومذاهبهم المشهورة.[57]

---

[52] النووي، محي الدين أبو زكريا. **المنهاج بشرح صحيح مسلم بن الحجاج**، تحقيق: خليل مأمون شيحا، ط5، بيروت: دار المعرفة، 1998م، حديث رقم 4761، ج12، ص439.

[53] العرباض بن سارية؛ هو صحابي جليل وهو ممن نزل فيه قوله تعالى: "ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه" (التوبة: 92)

[54] الترمذي، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، حديث رقم 2816، ج3، ص149.

[55] انظر كذلك هذه الأحاديث: (من أحيا سُنة من سُنتي فعمل بها الناس كان له مثل أجر من عمل بها لا ينقص من أجورهم شيئا. ومن ابتدع بدعة فعُمل بها كان عليه أوزار من عمل بها لا ينقص من أوزار من عمل بها شيئا)-ابن ماجة، المقدمة-؛ (من سن في الإسلام سُنة حسنة فعُمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء. ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء.) -رواه مسلم في كتاب العلم-؛ (لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جُحر ضب تبعتموهم، قلنا يا رسول الله: اليهود والنصارى قال: فمن.)-رواه البخاري في كتاب الاعتصام-؛ (أبغض الناس إلى الله ثلاثة: مُلحد في الحرام ومبتغ في الإسلام سُنة الجاهلية ومُطلب دم امريء بغير حق ليهريق دمه."- البخاري، باب الديات-.

[56] البخاري. **صحيح البخاري**، مرجع سابق، حديث رقم5063، ص1079

[57] المرجع السابق، ص449.

**ثالثاً: ملاحظات حول التناول العلمي المعاصر لقضية السُّنن الإلهية**

إن جملة من الكتابات المعاصرة، في مجال السُّنن الإلهية، سواء تلك التي عنيت بالدعوة، أو الحضارة، أو الفكر عموماً، تعالج مفهوم السُّنن، وتُقدم بعض المحاولات التعريفية لها بحثاً عن استكشاف كنهها، وبيان معناها ومضمونها. ويمكن للباحث أن يضع على الأقل ملاحظتين حول هذه التعريفات. الأولى؛ أن الكثير من هذه التعريفات، لا تبتعد كثيرا عن الخطوط العامة والفضاءات الدلالية الأساسية التي رسمها الفكر الإسلامي المبكر من خلال مدونات اللغة العربية، ومؤلفات التفسير، وجهود علماء الأصول والحديث والفقه والكلام وغيرهم، التي أُشير إلى نتف يسير منها فيما سبق من البيان. والثانية؛ هي أنه يمكن تمييز أربعة مداخل أساسية –على الأقل– لتحديد مفهوم السُّنن الإلهية. فهناك المداخل التي تتناول السُّنن الإلهية، بوصفها إرادة الله وحكمته ومشيئته وفعله في خلقه. والمداخل التي تتناولها، بوصفها القانون والنظام الإلهي المحكم. والمداخل التي تعالجها، بوصفها المنهج والطريقة والسيرة المتبعة. والمداخل التي تنظر إليها، بوصفها المثال والنموذج والعادة المعلومة التي يقاس عليها وتأخذ منها العبرة. وفيما يأتي تحليل مقتضب لمختلف هذه المداخل، وبعض النماذج التعريفية لكل واحد منها.

**1) السُّنة بوصفها إرادة الله وحكمه ومشيئته وفعله (البعد الرباني للسُّنة)**

وهنا تركز التعريفات والمداخل الدلالية للسُنّة الإلهية، على معنى فعل الله وحكمته ورحمته وعدله وإرادته وكلمته، وقراره وممارسته لمعاني القدرة والقوة، وتدبيره لشؤون الكون والحياة والخلق. ومن التعريفات التي ركزت على هذا المعنى القول بأن سنة الله هي: ما اطّرد من فعل الله في معاملة الأمم والأفراد، بناء على أعمالهم وسلوكهم ومواقفهم من شرع الله، وأثر ذلك في الدنيا والآخرة.[58] وهي كلمة الله على اختلاف التعبير، بمعنى أن كل قانون من قوانين التاريخ، هو كلمة الله سبحانه وتعالى. وهو قرار رباني.[59] وهي إرادة الله،

---

[58] عاشور، مجدي محمد محمد. **السُّنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم، مرجع سابق**،ص 36.

[59] الصدر، محمد باقر. **المدرسة القرآنية**، مرجع سابق، ص77.

ممثلة لحكمة الله وتدبيره في الكون.[60]

و هذه التعريفات تؤكد على ثلاثة أمور مهمة. أولها؛ أن السُّنن الإلهية، تعبير عن ارتباط الخلق كله في نشأته وتدبيره ونظامه وحركته وصيرورته، بالخالق عز وجل. وثانيها أن فعل الله وإرادته وتدبيره، متصل مباشرة بحياة الإنسان ووجوده في هذا العالم. وثالثها؛ أن فعل الله المتجلي في السُّنن، فعل قاصد له غاية العدل والرحمة والهداية. فهذا الحضور لله سبحانه وتعالى، في واقع الحياة والخلق وأحداث عالم الشهادة والغيب عن طريق سُننه، تأكيد على إرادة الله سبحانه وتعالى في هداية الخلق، وتوجيههم إلى الفوز بالسعادتين الدنيوية والأخروية.

## 2) السُّنة الإلهية بوصفها القانون والنظام الإلهي (البُعد القانوني الموضوعي النظامي)

وفي هذا السياق تَرِد السُّنة الإلهية بمعنى القواعد الثابتة والضوابط، والنظام المبثوث في الكون، والتاريخ، والمجتمع. وهذه جملة من النماذج التي نحت هذا المنحى في تعريف السُّنة. السُّنة الإلهية هي الضوابط أو القوانين التي تتحكم في عملية التحضر،[61] وهي القوانين والأحكام الإلهية الجارية الثابتة المطّردة التي تتحكم في حركة التاريخ، وتبدّل الحضارات بين الأمم،[62] وهي تلك القوانين التي تجري على الناس جميعا دون استثناء، مؤمنين وغير مؤمنين.[63] وهي مجموعة القوانين التي سنّها الله عز وجل لهذا الوجود، وأخضع لها مخلوقاته جميعا.[64] كما تُعرّف كذلك على أنها تلك القوانين التي أقام الله عليها نظام الكون ونظام المجتمع، وهي سُنن وقوانين لها صفة العموم والشمول، كما أن

---

[60] المرجع السابق، ص 78.

[61] هيشور، محمد. **سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها**، مرجع سابق، ص36.

[62] المرجع السابق، ص27.

[63] جمعة، علي. من مقدمته لكتاب: محمد هيشور، **سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها**، مرجع سابق، ص12.

[64] كنعان، أحمد. **أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق**، بيروت: دار النفائس، 1997م، ص54.

لها صفة الثبات والدوام.[65] وهي كذلك القوانين المطّردة والثابتة، التي تحكم حركة الحياة والأحياء، وتحكم حركة التاريخ، وتتحكم بالدورات الحضارية،[66] وهي عبارة عن القانون الذي يحكم سير الفعل البشري.[67]، وهي "مجموع القوانين التي يسير وفقها الكون، التي يستفيد منها الكائن الإنساني بما يؤهله ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة:31) فيسخرها ويستفيد منها. إنها نظام هذا الكون المفتوح بما فيه ومن فيه، المسيرة له وفق إرادة الخالق المبدع جلّ شأنه، محلها الواسع: السموات والأرض، والحياة والكون.. والإنسان. وهي القواعد والضوابط التي تضمنتها السُّنن التشريعية،[68] التي جاء بها الرسل منسجمة مع سنن الفطرة وناموس الكون، مكملة لهما في الجانب الاختياري الحر، مضيئة للعقل سبل الحقائق.[69]

وبالنظر إلى مختلف هذه التعريفات يمكن تأكيد ثلاثة أمور. أولها؛ أنه إذا كان المدخل الأول لتعريف السُّنن، قد أكد على أهمية البعد الرباني، والرحمة الإلهية، والحضور الإلهي في أحداث الكون والوجود المشهود، فإن هذا المدخل، يركز على الجانب الموضوعي للسُنن،أي جانب القانون والنظام المطّرد والمتقن الذي لا يحابي أحداً، ويمكن دراسته بطريقة علمية بغض النظر عن عقيدة الفرد وتوجهه الديني. فهو نظام وقوانين دقيقة علمية، يمكن فهمها وتفسيرها واكتشافها وتسخيرها، من قبل أي فرد أو مجتمع[70]. وبعبارة أخرى: "السُّنن الإلهية من حيث هي قانون رباني في الوجود، متاحة لكل إنسان. لا تتبع لعقيدة البشر، أمؤمن هو أم ملحد، إلا ما كان من السُّنن الخاصة بالمؤمنين أو

---

[65] القرضاوي، يوسف. **العقل والعلم في القرآن الكريم**، مرجع سابق، ص279.

[66] حسنة، عمر عبيد. **مراجعات في الفكر والدعوة والحركة**، ط2، الرياض: الدار العالمية للكتاب الإسلامي، 1992م، ص27.

[67] الركابي، إياد. **السُّنن التاريخية في القرآن المجيد**، بيروت: دار النهضة الإسلامية، 1996م، ص10.

[68] عرجون، محمد الصادق. **سُنن الله في المجتمع من خلال القرآن**، جدة: الدار السعودية للنشر، د.ت.

[69] الوزير، إبراهيم علي. **على مشارف القرن الخامس عشر الهجري**، مرجع سابق، ص25، 32.

[70] أبو الحسن، صديق عبد العظيم. مفهوم السُّنن الإلهية في القرآن الكريم، **مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية**، جامعة الكويت، العدد: 31، أبريل 1997م.

الكافرين."[71] وثانيها؛ أن الإنسان يتقوى ويتمكن، ويسود وينسجم، مع حركة الكون، ويحقق أعلى مراتب الاستخلاف والتحضر والعمران، بمقدار ما يستوعب، ويُسخّر هذه القوانين والسُّنن بطريقة صحيحة فعالة. فآثاره وتمكينه وذكره يتخلد، ويترسخ بقدر فعاليته واستجابته لسُنن الله وقوانينه، كما يؤكد ذلك محمد عبده في قوله: "...وعلى حسبها تكون الآثار، وهي التي تسمى شرائع أو نواميس، ويعبّر عنها قوم بالقوانين."[72] وثالثها؛ أن هذه السُّنن، وهذه القوانين، وهذا النظام الكوني والاستخلافي والتاريخي العام، متوافق مع الفطرة، ومتناغم مع الطبائع، التي جبل الله عليها الخلق، والهيئات التي ركبها في عقولهم، ونفوسهم، وأفئدتهم، وحواسهم، وجوارحهم. وبهذا المعنى تصبح السُّنن الإلهية قوة ضاربة، ونعمة عظيمة، وضعها الله في يد الإنسان، ليكتشف بها فطرته، ويعرف بها القوانين التي تجعله ينسجم في حركته مع سُنن الله في الاستخلاف والتاريخ والعمران، ويحقق أقصى مراتب الفعالية في تسخير السُّنن، من أجل الاستخلاف الحقيقي والفوز بسعادتي الدنيا والأخرة.

## 3) السُّنة الإلهية بوصفها المنهج والطريقة والسيرة المتبعة (البعد المنهجي والتربوي)

يؤكد هذا المدخل على بُعد المنهج والطريقة والسيرة والمسلك الذي ينبغي اتباعه، في فهم السُّنن وتسخيرها. فالسُّنة الإلهية هنا تُعرّف على أنها المنهج والمسلك والسبيل والسيرة المتبعة، وطريقة معاملة الله لخلقه، والأساليب التي يدير بها الله العالم، وطريقته في الرحمة والعدل، كما يقول الفراهي؛ إذ هي"طريقٌ عامة يجري بها أمرهُ في عباده...وهي الطريقُ المرعيةُ في أفعال الله تعالى، وهي طريق العدل والرحمة."[73] ومن التعريفات التي نحت هذا المنحى، القول بأن سنة الله، هي طريقة عامة يجري بها أمره في عباده... وقد تكون شرعية كما تكون كونية تاريخية،[74] وهي شريعته وطريقته، وما جرى من نظامه في خلقه.[75] وهي

---

[71] محمد هيشور، **سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها**، مرجع سابق، ص28.

[72] عبده، محمد. **الإسلام دين العلم والمدنية**، مرجع سابق، ص132.

[73] الفراهي، عبد الحميد. **مفردات القرآن**، الدار الحميدية ومكتبتها، دون مكان وتاريخ النشر ، ص45.

[74] فرحات، حسن أحمد. **سنة الله التي لا تتبدل ولا تتحول**، ط1، عمان: دار عمار للنشر والتوزيع، 1999م، ص59.

الطريقة والمنهج والمسلك. وسنّة الله هي المنهج الإلهي في تسيير أمور حياتنا، وهي طريقته في تربية الأمم، وهي شرائعه التي يرشد بها إلى الله وإلى الحق،[76] وهي الطريقة المعبدة والسيرة المتبعة أو المثال المتبع...ومعنى ذلك أن أمر البشر في اجتماعهم، وما يعرض عليهم فيه من مصارعة الحق والباطل، وما يتبع ذلك من الحرب والنزال، والملك والسيادة، وغير ذلك، قد جرى على طريق قديمة، وقواعد ثابتة اقتضاها النظام العام.[77] وهي الطريقة المتبعة في معاملة الله تعالى للبشر، بناء على سلوكهم وأفعالهم، وموقفهم من شرع الله وأنبيائه، وما يترتب على ذلك من نتائج في الدنيا والآخرة.[78] وهي النهج والنظام الإلهي العام الذي يخضع له الخلق، أفراداً وجماعات.[79] وهي كذلك الأساليب التي يستخدمها الله تعالى في إدارة وتدبير أمور العالم والإنسان.[80] كما ذكر البعض كذلك، أنها تعني طريقة الله تعالى في معاملة خلقه، كل نوع من الخلق حسب المهمة التي خلق لها.[81]

ونشير هنا إلى أمور أربعة ذات أهمية، تثيرها مختلف هذه التحديدات. أولها؛ أن السُّنن هي التي تبين لنا الطرائق والأساليب التي تسير عليها أمور العالم وشؤون الخلق. وعلى هذا الأساس فهي قوة في أيدينا، ومنهج قويم يرشدنا إلى تسخير هذه القوة، في تحقيق الاستخلاف المنشود. يقول محمد عمارة: "فعلى المسلم أن يعلم أن ضالته المنشودة

---

[75] إبراهيم، محمد إسماعيل. **معجم الألفاظ والإعلام القرآنية**، تقديم: عبد الصبور شاهين، ط3، القاهرة: دار الفكر العربي، د.ت، ص154.

[76] خفاجي، محمد عبد المنعم. **موسوعة ألفاظ القرآن الكريم**، القاهرة: المؤسسة العربية الحديثة، 1988م، ص141-142.

[77] الشرقاوي، عفت. **في فلسفة الحضارة الإسلامية**، ط4، بيروت: دار النهضة العربية، 1985م، ص286.

[78] زيدان، عبد الكريم. **السُّنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية**، مرجع سابق ص13.

[79] سلمان، سمير. **خطاب الكلمة في القرآن**، طهران: منظمة الإعلام الإسلامي، 1989م، ص33.

[80] اليزدي، محمد تقي. **النظرة القرآنية للمجتمع والتاريخ**، تعريب: محمد عبد المنعم الخاقاني، بيروت: دار الروضة، 1996م، ص493.

[81] يوسف، يوسف إبراهيم. **السُّنن الإلهية في الميدان الاقتصادي**، مركز صالح عبد الله كامل، سلسلة الدراسات والبحوث الاقتصادية، رقم 4، ديسمبر 1997م، ص13.

وميدان اهتمامه الأكبر، إنما هو اكتشاف (السُّنن الجارية) وامتلاكها أسلحة، لتغيير النفس والواقع الذي يعيش فيه."[82] وثاني هذه الأمور؛ أن للسنن وظيفية توجيهية وترشيدية للإنسان، على مستوى الرؤية، ومنهج النظر في الكون والتاريخ والاستخلاف[83]. وثالثها؛ أن للسُنن بعداً تربوياً مهماً، يتم بموجبه تربية الإنسان على منهج الله عز وجل، وتربيته على الالتزام بهذا المنهج، واتباعه في الفهم والفعل، حتى تستقيم أموره وأقواله وأفعاله مع مراد الله عز وجل، وتتحقق فيها السُّننية[84] التي تؤدي في الأخير إلى التسخير الصحيح لما وهبه الله للإنسان، من العقل والروح والنفس والجسد والجوارح، وما أصبغه عليه من النعم المادية والمعنوية، التي لا تحصى في الكون، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (النحل:18). وفي هذا الأمر معنىً تربوي كوني استخلافي، يوجه الإنسان للاستفادة من سنن الله، في تربية نفسه، وتحويل طاقاته ومسخراته، إلى قيم تربوية، وأعمال حضارية تسخيرية، تساهم في تحقيق الاستخلاف المنشود. ورابعها؛ أن هناك تنوعاً للسُنن الإلهية على حسب خلق الله سبحانه وتعالى، ووفق الطبائع المتنوعة والمتكاملة لما خلقه الله، في عالمي الغيب والشهادة.

### 4) السُّنة الإلهية بوصفها المثال المتبع والنموذج والعادة المعلومة التي جرت عليها حياة الخلائق والأمم (البعد الثقافي والاعتباري)

ذهب بعض العلماء إلى التأكيد على أن السُّنة تعني العادة المعلومة، التي أجرى الله عليها حياة الأمم، وسيرة الأقوام الذين خلوا. وهذا ما أكدته بعض التناولات التفسيرية التي شُرحت فيما مرّ من البحث. وهنا تأكيد على كون السُّنة بمثابة العادة التي اعتاد الله معاملة الأقوام والأمم وفقها، وهي لا تتبدل. وهذا الذي أكده بقوة، شيخ الإسلام ابن تيمية، في تحديده لمفهوم السُّنة الإلهية، حين قال: "فهذه سُنة الله وعادته في نصر عباده

---

[82] عمارة، محمد. **معالم المنهج الإسلامي**، ط2، القاهرة: دار الشروق، 1991م،ص50.

[83] العبيدي، خالد فائق. **القوانين القرآنية للحضارات: دراسة قرآنية لأحداث التاريخ**، بيروت: دار الكتب العلمية، 2005م، ص90 وما بعدها.

[84] سعيد، جودت. **الدين والقانون: رؤية قرآنية**، ط1، دمشق: دار الفكر، 1998م، ص46 وما بعدها.

المؤمنين على الكافرين، وانتقامه وعقوبته على الذين بلغتهم الرسل بعذاب من عنده أو بأيدي المؤمنين، هي سنة الله التي لا توجد منتقضة قط."[85] ورتّب شيخ الإسلام على تحديده هذا، قضية مهمة، هي قضية الاعتبار والاطّراد والقياس في السُّنن الإلهية، على ما مضى من سُنن الله في خلقه، فقال: "ومن هذا الباب صارت قصص المتقدمين عبرة لنا. ولولا القياس واطّراد فعله وسنته، لم يصح الاعتبار بها. والاعتبار، إنما يكون إذا حكم الشيء حكم نظيره، كالأمثال المضروبة في القرآن وهي كثيرة."[86] وبناء على هذا يقول: "فأمرنا أن نعتبر بأحوال المتقدمين علينا من هذه الأمة، وممن قبلها من الأمم. وذكر في غير موضع، أن سنّته في ذلك سُنّة مُطردة وعادةٌ مستمرة. وأخبر سبحانه أن دأب الكافرين من المتأخرين كدأب الكافرين من المستقدمين، فينبغي للعقلاء أن يعتبروا بسنة الله وأيامه في عباده، ودأب الأمم وعاداتهم."[87] ونجد المنزع نفسه، عند الإمام الشاطبي في "الموافقات"، وذلك عند حديثه عن السُّنة، وإشارته إلى القسم الأول المتعلق بالأمر والنهي، ثم تحدث عن القسم الثاني وقال فيه: "أن لا يقع موقع التفسير ولا فيه معنى التكليف، اعتقادي أو عملي، فلا يلزم أن يكون له أصل في القرآن، لأنه أمر زائد على موقع التكليف، وإنما نزل القرآن لذلك، أي للجانب الذي فيه تكليف، فالسُّنة إذا خرجت عن ذلك فلا حرج. وقد جاء من ذلك نمط صالح في الصحيح، كحديث أبرص وأقرع وأعمى، وحديث جريج العابد، ووفاة موسى، وجُمل من قصص الأنبياء عليهم السلام، والأمم قبلنا، مما لا يبني عليه عمل. ولكن في ذلك اعتبار، نحو مما في القصص القرآني، وهو نمط ربما يرجع إلى الترغيب والترهيب، فهو خادم للأمر والنهي، ومعدود في المكملات لضرورة التشريع، فلم يخرج بالكلية عن القسم الأول والله أعلم."[88] ونجد تقريباً هذا المنحى في النظر إلى السُّنة عند الطاهر ابن عاشور، الذي يُعرّفها بأنها "العادة والسيرة التي يلزمها صاحبها."[89]

---

[85] ابن تيمية، **الرد على المنطقيين**، باكستان، طبعة لاهور، د.ت، ص390-391.

[86] ابن تيمية، **رسالة السنة**، مرجع سابق،ص53-54.

[87] ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، بيروت: طبعة الدار العربية، د.ت، ج28، ص 425.

[88] الشاطبي، أبو اسحاق. **الموافقات في أصول الشريعة**، مرجع سابق، ج4، ص55.

[89] ابن عاشور، الطاهر. **تفسير التحرير والتنوير**، تونس: الدار التونسية، د.ت، ج15، ص178.

ومما يمكن استفادته من اعتبار السُّنة هي العادة المعلومة، أن سنّة الله أصبحت جزءًا من ثقافة الأمم السابقة، ومحوراً أساسياً في تراثهم وتاريخهم وأحوالهم وأفعالهم. ولهذا نجد القرآن الكريم يدعو إلى السير في الأرض، ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (الروم: 9) إضافةً إلى دعوته للنظر في عاقبة الأولين، وفي العادة التي كان الله يعاملهم، وفقاً لها في حالتي الاستجابة لأوامره أو المخالفة لها. ولما أصبحت السُّنة جزءاً من عادة الأمم وثقافتهم، أصبح ممكناً القياس عليها، واتخاذها معياراً للاعتبار والنظر الصحيح، لما ستؤول إليه أحوال الأمم الحاضرة، في حالة توافقهم أو تخالفهم مع سُنن الله. واستنادا إلى هذا المعنى للسّنة، وربطها بالعادة التي لها صلة بمسألة ثقافة الأمم، فإن تاريخ هذه الأمم، يصبح هو المصدر الأساسي للاعتبار، واستخراج السُّنن، ومعرفة كيف تعمل في حياة الناس. "فالتاريخ ليس خاصاً بالماضي. وإنما هو يشمل الحاضر والمستقبل، بمعنى أن سُننه تنطبق على الحاضر والمستقبل، كما تنطبق على الماضي. لكن لما كان الإنسان الذي يعيش في الحاضر، لم يشهد الحاضر إلا شهوداً جزئياً، وفي مرحلة زمنية قصيرة، لا تكفي لترتب النتائج على الأسباب، وكذلك المستقبل بالنسبة لمن يعيش في الحاضر، فإنه غيّب. لذلك كله كان توجيه القرآن النظر إلى تاريخ الأمم السابقة، وإلى الأحداث التي عاصرها المسلمون الأولون، التي ترتبت فيها النتائج على الأسباب."[90] وفي السياق ذاته، يقول الإمام محمد عبده رحمه: "إن الله سبحانه وتعالى برحمته قد وضع للأمم سُنناً متبعة...وأرشدنا سبحانه في محكم آياته، إلى أن الأمم ما سقطت من عرش عزّها، ولا بادت، ومحي اسمها من لوح الوجود، إلا بعد نكوبها عن تلك السُّنن التي سنها الله على أساس الحكمة البالغة، إن الله لا يغير ما بقوم من عزة وسلطان، حتى يغير أولئك القوم ما بأنفسهم من نور العقل، وصحة الفكر، وإشراق البصيرة، والاعتبار بأفعال الله في الأمم السابقة، والتدبر في أحوال الذين حادوا عن صراط الله فهلكوا. فأخذهم الله بذنوبهم وجعلهم عبرة للمعتبرين، هكذا جعل الله بقاء الأمم ونماءها، في التحلي بالفضائل التي

[90] فرحات، حسن أحمد. **سنة الله**، ص14.

أشرنا إليها. وجعل هلاكها ودمارها في التخلي عنها، سنة الله ثابتة لا تختلف باختلاف الأمم، ولا تتبدل بتبدل الأجيال."[91] فبفضل الله سبحانه وتعالى، أصبحت السُّنن الإلهية، مصدراً مهماً للوعي والاعتبار والتربية والتسخير والقوة؛ بحيث "تعتبر سنة الماضين حسب نهج القرآن دعماً للبشر، ومساعداً لهم في الابتعاد عن الوقوع في الخطأ مرة أخرى. وكلّ التجارب البشرية العريقة في القِدم، والموزعة على أقطار البسيطة، تراث من العِبر لكل الناس."[92]

**رابعا: ملاحظات منهجية حول التناول الحضاري للسُنن الإلهية**

بعد هذا الاستعراض المقتضب لمختلف التناولات المنهجية لمسألة السُّنن الإلهية، فإنه من الأهمية تثبيت بعض الملاحظات الضرورية، للتعامل مع هذا الموضوع بصورة موضوعية متكاملة، تتيح إمكانية دراستها وتفهمها واكتشافها، وبناء الفقه الحضاري عليها.

## 1. السُّنن الإلهية مركب متكامل من المعاني والدلالات والتوجيهات

يتضح لنا مما سبق، وفي ضوء الرؤية الحضارية المتكاملة، إدراك أن مسألة السُّنن، ليست مجموعة من القواعد، أو الأسس العامة، أو القوانين التي تحكم الكون والحياة فحسب، ولكن في عمقها وجوهرها، تعبر عن مركب متكامل، يشتمل على أبعاد ومعاني متداخلة ومترابطة، بصورة لا يمكن معها فهم السُّنن، إلا بالنظرة الحضارية الكلية المتكاملة، التي تجمع كل هذه الأبعاد المركزية في إطار تحليلي واحد. فعند النظر إلى السُّنن الإلهية من جهة صلتها بالله سبحانه وتعالى الخالق، فإن التركيز يكون في بُعد الخلق والإرادة، والحكمة، والمشيئة، والعلم، والقدرة، والإتقان، والقصد، والغاية، والحكمة، والتدبير، والصنع الرباني المحكم والمتقن.وبالنظر إلى السُّنن من جهة الكون والآفاق–التي ترجع كذلك في خلقها إلى الله سبحانه وتعالى–، فإن التركيز يكون في بُعد الكون

---

[91] عبده، محمد. دروس من القرآن الكريم، **كتاب الهلال**، عدد 96، القاهرة، 1959م، ص190، وانظر أيضاً:
– حازم زكريا محيي الدين، **مفهوم السُّنن الإلهية عند محمد رشيد رضا من خلال تفسيره "المنار"**، رسالة ماجستير، كلية الإمام الأوزعي للدراسات الإسلامية، بيروت، لبنان، 2001م، ص69.

[92] سعيد، جودت. **حتى يغيروا ما بأنفسهم، أبحاث في سُنن النفس والمجتمع**، ط8، دمشق: دار الفكر، 1989م، ص128.

المادي، وبُعد الكون الآيتي "نسبة إلى آيات الله". وفي مستوى هذين البعدين تظهر السُّنن، بوصفها النظام، والقانون المتناسق والمنسجم والمتكامل والمتناغم والمتوازن، الذي يجري وفقه الكون، وتسير عليه الآفاق، بما تشتمل عليه من موارد ومصادر مادية، وآيات إلهية معجزة.

وعند النظر إلى السُّنن من جهة الإنسان، فإن الحديث يركز على الوعي، والفقه، والتبصر، والعلم، والعمل، والتحكم والاستكشاف، والتسخير، والمنهج، والطريقة، والقواعد، والضوابط، والأسس، والمبادىء، والمثال، والنموذج الواجب الاتباع، والقيم التربوية السلوكية والعملية، التي يمكن استفادتها من السُّنن وتطبيقها في حياة الفرد والمجتمع. وإذا نظرنا إلى السُّنن من جهة التاريخ، فإن التركيز يكون حول دراسة كيفية صناعة الحضارة والثقافة، والتطبيقات الفعلية لحركة الاستخلاف والعمران، وتطوير مناهج الاعتبار، والاستفادة من التجارب والخبرات، والنماذج التطبيقية لعمل السُّنن الفعلي في الحياة والواقع.

وعلى هذا الأساس، فإن أي تعريف للسُنن الإلهية، ينبغي أن تتجلى فيه هذه الأبعاد والمعاني. ومن التعريفات التي أسهمت في تعميق هذا المنحى في النظر إلى السُّنن، التعريف القائل بأنها تلك: "الأنساق الخلقية الهيكلية، أو البنيوية المنتظمة في المفردات الكونية، لتضمن أداء كل مفردة منها لوظيفتها الوجودية الداخلية والخارجية، في النسيج الكوني العام باطّراد، سواء تعلق الأمر بمفردات عالم الآفاق، أو عالم الأنفس، أو عالم الهداية، أو عالم التأييد (الرباني)، وهي العوالم الأربعة ذات العلاقة التسخيرية المباشرة بالإنسان، التي يقوم كل منها على نسيج سُنني متكامل، يحكم وجوده، ويحدد طبيعته وهويته الذاتية، التي ينبثق منها المنهج المعرفي الوظيفي، الذي يمكّن من فعالية البحث فيها، وتوسيع آفاق المعرفة بها أولاً، ومن ثم الفهم لآليات عملها وأدائها لوظائفها التسخيرية ثانياً، والوصول إلى القدرة اللازمة على التحكم التسخيري فيها، أو الاستثماري لها بعد ذلك في نهاية

الأمر."[93] إن هذا التحديد للسُنن الإلهية، يؤكد على أهمية النظرة الحضارية المتكاملة، كما يؤشر بوضوح إلى الأبعاد الكبرى لمسألة السُّنن، و إلى التكامل والتناسق في هذا البناء الإلهي الكوني المحكم، وإلى المنهج المعرفي اللازم لفهمها وتسخيرها، وفق طبيعة كل ساحة من ساحاته المتكاملة: سواء في عالم سُنن التأييد الرباني، أو عالم سُنن الآفاق، أو عالم سُنن الأنفس، أو عالم سُنن الهداية.

وعليه فالسُّنن الإلهية –كما ينظر إليها هذا البحث– هي: النظام الرباني النموذجي الأصلي (المتناسق والمتكامل والمطّرد والثابت والعام) الذي أجرى عليه الله شؤون الكون والحياة والإنسان، وحكم وَفْقَهُ حركة الاستخلاف (العمران، الحضارة، الثقافة، التاريخ)، وأخضع له وجود الإنسان وصيرورته في عالم الشهادة الدنيوي، وذلك من أجل تمكين الإنسان، ليحقق أعلى مراتب الفقه البصير بالسُّنن، والتسخير الرشيد لها فردياً وجماعياً، ويحقق كذلك أقصى مستويات الترقي في الاستخلاف؛ عبودية لله، وعمراناً للكون، وإنقاذا للخلق، وشهوداً حضارياً على الأمم، ويحوز بذلك أعلى مراتب الفوز بمقامات الفلاح في عالم الآخرة والبقاء.

## 2. رؤية القرآن للخلق والاستخلاف والتاريخ سُننية في الأساس

وبناء على الملاحظة السابقة، فإنه من الأهمية التأكيد على سُننية القرآن، بوصفه كتاباً إلهياً مشتملاً على رؤية سُننيةٍ للعالم والخلق والاستخلاف. إن هذه النظرة القرآنية للسُنن الإلهية، تجعل منها أحد أكثر الظواهر دلالة على الإعجاز الكوني، والاستخلافي، والعمراني، والحضاري للقرآن الكريم، ولنظرته الوجودية. وتَجلّي السُّنن الإلهية على المستوى الكوني، وجَرَيانها في ظواهره الطبيعية والمادية والبشرية، وضَبْطها لحركة الاستخلاف البشري على مستوى التصور والنظرة، وتَحَكُّمها في العمران الحضاري الإنساني على المستوى الفعلي، دليل على الأهمية التي يوليها القرآن للسُّنن، والمكانة التي تحتلها ضمن بنائه التصوري الكوني العام.

---

[93] برغوث، الطيب. **الفعالية الحضارية والثقافة السُّننية**، مرجع سابق، ص27.

والدارس للقرآن الكريم بتمعن وتدبر علمي منهجي؛ وبصورة خاصة في رؤيته للكون، والإنسان، والحياة، والتاريخ، والاستخلاف، والحضارة، والعمران البشري، سيجد دون شك أن فكرة السُّنن، تشكل أساساً مركزياً محورياً، ليس فقط لضبط حركة الخلق، وتنظيم شؤون المخلوقات في كل مستوياتها المشهودة ضمن عالم الشهادة، ولكن- وبدرجة أكثر أهمية للإنسان وصيرورته في أحواله، وتقلباته على هذه الأرض- جعل السُّنن واحداً من أكبر مصادر القدرة والقوة والتمكن، التي تعين الإنسان على الفهم، والتفسير، والفعل العمراني والاستخلافي والحضاري، الأكثر انسجاماً وتوافقاً مع طبائع الأشياء ومنطقها الفطري.

## 3. النظرة المتكاملة، وأهمية اكتشاف شبكة السُّنن

إن القرآن حين يعرض مسألة السُّنن الإلهية في سياقاته المختلفة، والمتنوعة، والمتكاملة، والمتداخلة، والمتفاعلة، لا يتحدث عن مجموعة سُنن مجزئة ومعزولة عن بعضها البعض؛ بحيث نكتفي بدراستها وتحليلها بصورة جزئية انتقائية، أي واحدة واحدة كما يحدث عادة في مناهج التفسير الجزئي. بل على العكس تماماً، فهو يعرضها "وحدة كلية مرتبطة بعضها ببعض أشد الارتباط."[94] والقرآن يعرض كلاً متناسقاً من السُّنن المتفاعلة والمتداخلة، التي لا يمكن أن تفهم في إطارها الكلي والجزئي، إلا بدراستها المتداخلة والمتكاملة، بوصفها شبكة من المعاني، والعلائق، والروابط، والضوابط، والمقاييس، والمعايير، التي تسمح بتوليد الأفكار، واستخراج القوانين، والتوجيهات التي تساعد الإنسان على اكتشاف هذا النسق المتفاعل والمتكامل من السُّنن، وتوظيفه في استقراء القوانين التي تحكم الأشياء وصيرورتها، وتسخير هذه السُّنن والقوانين المستولدة من هذا النسق المتكامل في معالجة المشكلات، ومداواة أمراض العمران، والحضارة، والإنسان، وأسقام النفس والقلب والعقل والسلوك. وفي هذا السياق يقول علي جمعة، إنه ينبغي للباحثين في موضوع السُّنن أن يكتشفوا: "شبكة العلاقات المتداخلة بين السُّنن المختلفة،

[94] هيشور، محمد. **سنن القرآن**، مرجع سابق، ص32.

بما يظهرها في خريطة متكاملة ذات فاعلية."[95]

إن عملية التعامل مع السُّنن، لن تؤتي ثمارها المرجوة على مستوى الفهم والاكتشاف والتسخير، ما لم نكتشف شبكات السُّنن، وكيف تتشكل في الواقع البشري وتؤثر فيه. ومن هنا فإنه من المطلوب أن تُدرس السُّنن، بوصفها مفهوماً حيوياً فعالاً، له صلة مباشرة بتفاعلات الواقع، وتدافعات الحياة، وصيرورة الأحداث والوقائع، على المستوى الكوني والاستخلافي والعمراني. فلا يكفي الحديث عن السُّنن، بوصفها قوانين ثابتة فحسب، ولكن يجب أن نبحث في العلاقات المختلفة بين السُّنن المنتشرة والفاعلة في الواقع الفردي والجماعي، وفي شؤون العمران والحضارة والثقافة والمجتمع، وفي حركة الكون والعالم، وفي مختلف الظواهر. وعليه فدراسة السُّنن –سواء من حيث تحديد تعريفها أو وظيفتها أو بنائها أو خصائصها– لا يستقيم، ولا يتكامل، ولا يكون علمياً، ولا يُعدّ قرآنياً (أي وفق المنظور القرآني)، إلا إذا تمكن الباحث من ضبط وعيه، وفهمه للنظرة القرآنية للسُنن، واستطاع أن يكتشف السُّنن في سياقاتها وعلائقها المتداخلة والمتشابكة؛ بحيث يكتشف الضوابط والقوانين، التي تحكم تركيب السُّنن وترابطاتها، وتشابكاتها، وصلاتها، ووظائفها المتداخلة والمتفاعلة. "فالسُّنن الإلهية لا تعمل فرادى، إنما تعمل مجتمعة، وتكون النتيجة الواقعية، هي حصيلة السُّنن العاملة كلها في آن واحد، أو بالأحرى، حصيلة تعامل الإنسان مع مجموع السُّنن التي تعرض لها أثناء حركته في الأرض."[96]

وحينما يُعرّف الباحثون السُّنة الإلهية، بوصفها الطريقة، أو النظام، أو تتابع الأشياء وتكرارها وتعاقبها على المنوال نفسه، وترادها بالنسق ذاته، فإن هذا التحديد، لا يكفي لفهم حقيقة السُّنة، ووظيفتها، ونظامها، وبنائها، وشبكة علاقاتها وصلاتها داخل هذا النظام، وهذا المركب الدقيق الذي يسمى "السُّنن الإلهية". والنقطة الأساسية التي ينبغي أن تكون واضحة، هي أن السُّنة لا تُعبّر في أي حال أو سياق من

---

[95] جمعة، علي. من مقدمته لكتاب: محمد هيشور، **سنن القرآن**، ص14.

[96] قطب، محمد. **حول التفسير الإسلامي للتاريخ**، جدة: المجموعة الإعلامية، 1981م، ص92.

السياقات القرآنية، على شيء مفرد أو واحد معزول، ولكن تُعبّر دائماً، وفي أي سياق كان، عن "شبكة من السُّنن المتداخلة والمترابطة والمتشابكة والمتكاملة". ومن دون استكشاف هذا التداخل، والتكامل، والتناسق، والترابط، والتعالق بين شبكة أو مجموعة متكاملة من السُّنن، فإن فهم السُّنة يبقى غير مكتمل، ويُعدّ فهماً جزئيا. ولكي نفهم سنّة أو ظاهرة معينة، كونية، أو استخلافية، أو عمرانية، أو حضارية، أو دينية – وفق المنظور القرآني– لابد من اكتشاف شبكة السُّنن أو أجزاء النَّسَق، التي تشكل الكُل المُركّب لهذه السُّنة. فلا يمكن أن يُفهم حدوث ظاهرة ما، إلا باكتشاف كل العوامل، والأحداث، والتدافعات، والسلوكيات، والأنشطة، التي تشكل في نهاية تركيبها "مفهوم السُّنة"، ووظيفتها، وكيفية عملها في الواقع.

وبناء على كل ما سبق، فإنه ينبغي التأكيد على ضرورة النظرة المتكاملة للسُّنن الإلهية. ومما ينبغي الاهتمام به في التعامل مع مسألة السُّنن في القرآن، امتلاك المنهج القادر على تجلية حقيقة السُّنن، بصورة علمية وموضوعية سليمة. والمطلوب تطوير رؤية متكاملة، تُمكّن من النظر إلى دلالات السُّنن، من خلال الدوائر التحليلية الآتية:

– دائرة تحليل دلالة السُّنة في السياق المباشر؛ أي في سياق ورودها المباشر في الآية التي ذُكرت فيها.

– دائرة تحليل دلالة السُّنة في السياق العام لكل سورة من السور التي وردت فيها اللفظة.

– دائرة تحليل دلالة السُّنة في سياق جملة الصور التي وردت فيها اللفظة.

– دائرة تحليل دلالة السُّنة في السياق الكلي للقرآن الكريم وإطاره التحليلي العام، ومحاولة تشكيل ما يمكن تسميته بشبكة الدلالات، والمفاهيم، والمفردات، والضوابط، والقواعد، والتوجيهات التي يمكن استحلابها من مسألة السُّنن وتطبيقاتها في حياة الفرد والمجتمع.

إن تقديم دراسة تنظر في كل هذه الدوائر، تستطيع أن تجلي المسألة السُّننية في القرآن، وتعين على اكتشاف السُّنن والتعامل معها بشكل علمي. ومن جهة أخرى ينبغي

أن تتعزز دراسة السُّنن وكشفها وتسخيرها، بالفعل المعرفي الفكري الاجتهادي الذي يدرس التاريخ، والفعل الحضاري، وحركة الاستخلاف، ويسير في الأرض فينظر كيف تعمل السُّنن؛ وكيف تتفاعل في عمق الفعل التاريخي، وذلك لكي يتمكن الإنسان من اكتشاف العلاقة، والتأثير المتفاعل بين سنن التاريخ، وسنن الكون، وسنن الهداية؛ وكيف يقدم لنا تاريخ الإنسان، وتجربته الاستخلافية الحضارية، الخبرة الفعلية في كيفية عمل السُّنن وتركيبها في الواقع. والقرآن الكريم بمقدار ما يدلنا على بعض السُّنن، ويحثنا على تفهمها من خلال السياق القرآني، فهو يحثنا على أن نتوجه إلى الواقع، وإلى التاريخ، لكي نفهم ونكتشف ونسخر ونرتقي، ونبني وعينا وخبراتنا وثقافاتنا السُّننية التي تمثل القدرة والسلطان والقوة.

ومن هنا فالاجتهاد، وإعمال العقل، والنظر في التاريخ، والسير في الأرض، كلها أمور أساسية في بناء الثقافة السُّنية المطلوبة للنهضة الحضارية الاستخلافية المعاصرة. ومن ثم فإن الاستفادة من العلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية، والسلوكية المعاصرة، في بناء الوعي على السُّنن، أمرٌ مهمٌ للغاية، مع ضرورة إكمال ذلك بالترشيد القرآني للفعل المعرفي والحضاري السُّنني، حتى لا نغرق في بعض المتاهات المعرفية والمنهجية للمعرفة المعاصرة، ونتجنب مآلاتها الفلسفية المنحرفة.

**الخاتمة**

لقد أصبح جلياً من خلال هذا الاستعراض المقتضب لموضوع السُّنن الإلهية، كيف أنها تشكل محوراً مفصلياً، وبُعداً استراتيجياً حيوياً في الرؤية الكونية التوحيدية؛ وكيف أنها تشكل المحور في عملية الاستخلاف والتحضر، الذي ارتضاه الله سبحانه وتعالى لعباده. وكيف أن المقاربة الحضارية تتيح فرصة الدراسة المتكاملة لموضوع السُّنن. وقد تبيّن بما لا يدع مجالاً للشك، أن السُّنن الإلهية هي أولاً، نظام إلهي، صنعاً وصبغة وتدبيراً وإحكاماً وتحكماً. والمقصود بالنظام هنا، كل ما له صلة بالقوانين، والقواعد، والأسس، والضوابط، والطبائع، والهيئات، والمناهج التي تتحكم في سير الظواهر والأفعال. ومن هذا المنطلق، فإن دراسة السُّنن بوصفها –تشتمل على الأبعاد السابقة– تحتاج إلى منهج

متكامل، ورؤية حضارية تجمع بين توجيهات الوحي، ومعطيات الواقع، وحركة المجتمع وسيره. وتقتضي الضرورة المنهجية لدراسة السُّنن، الاستفادة من المعارف الشرعية، والمعارف الإنسانية، والمعارف الكونية، وكذلك من الإطار النظري والمعرفي، الذي يوفره الوحي لدراس السُّنن، بوصفها ظواهر كونية، وظواهر تاريخية، وظواهر دينية.

كما تبيّن أن السُّنن الإلهية، نظام رباني نموذجي أصلي، من حيث كونها نموذجاً ربانياً يقاس عليه، ويرجع إليه بوصفه معياراً أو مقياساً تقاس عليه الأعمال، وقد خلق الله السُّنن وأودعها في مختلف الظواهر ابتداءً، ليحكم بها حركة كل ما يجري في الكون بصورة متناسقة ومتناغمة ومتكاملة. ومن هذا المنطلق، فالإنسان لا يصنع السُّنن ولا يخلقها، وإنما يكتشف نظاماً إلهياً محكماً، ومطّرداً في حركة الظواهر والأفعال والأشياء. وعليه فإن اكتشاف هذا النظام في تناسقه وتكامله وفعاليته، هو المطلوب. ولكن اكتشافه، لا يكفي أن يكون فقط بصورة مجزأة، ولكن ينبغي اكتشافه بوصفه نظاماً متكاملاً، له آلياته وقوانينه وضوابطه ومصادره.

ومن الخلاصات الأساسية التي خرج بها البحث كذلك، أن للسُنن الإلهية أهدافاً أساسية منها: أنها المنهج القرآني لإعمار الكون، وتحقيق الاستخلاف المنشود، وأنها أدلة على الحق وعلى الصلاح، في كل فعل من الأفعال التي يقوم بها الخلق، وأنها الدليل على طريق الرشاد والهداية والفلاح في الدنيا والآخرة، وهي مصدر المعرفة والقوة والتمكّن في الأرض، وهي دليل الانتظام والتناسق والإعجاز في الخلق والحركية الكونية والبشرية، ومنها أنها مصدر للمعرفة بالآفاق والأنفس؛ ومن ثم تحقيق الذات عن المعرفة والعلم السُّنني الموصل إلى بناء الحضارة والعمران البشري المتوازن، الذي أمر به الحق تبارك وتعالى.

كما أكد البحث على ضرورة تطوير مناهج أكثر تكاملية لمقاربة السُّنن واكتشافها، بوصفها شبكة من المعاني والدلالات والقوانين والضوابط والقواعد، التي تتيح إمكانية النظرة العلمية الموضوعية لها، وتسخيرها في شؤون الاستخلاف والعمران. والمطلوب أن تكثف الدراسات العلمية المنهجية في ميدان الفقه السُّنني.

ومن المجالات التي ينبغي الاهتمام بها:

– توظيف مناهج اكتشاف السُّنن في الآفاق والأنفس من خلال الوحي والخبرة المعرفية الإنسانية المعاصرة، ومن ثم بناء نظرية السُّنن الإلهية في الرؤية الكونية التوحيدية.

– الدراسة المعرفية والمنهجية، للعلاقة بين سنن التاريخ وسنن الكون وهدايات الوحي، وتأثير كل واحد منهما في الفعل الحضاري

– بناء الثقافية السُّننية وممارسة التربية السُّننية في المجتمع المسلم.

– وعي السُّنن الإلهية في عصر العالمية والعولمة. ودور هذا الوعي في التجديد والإصلاح المعاصر.

– استنتاج منهجية القرآن في دراسة السُّنن واستعمال مدخل السُّنن في تأسيس مناهج التعامل مع العلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية.

– الفقه السُّنني اللازم للفعل الحضاري والاستخلافي، وتوظيفه لمعرفة مشكلات الواقع البشري المعاصر، وللنهوض بواقع الأمة المسلمة وبناء الحضارة الإسلامية المعاصرة.

– الفقه السُّنني لأغراض تنمية التفكير الإبداعي اللازم لحل المشكلات، ولتنمية منطق الفعالية، والتوازن، والتكافل، في حركة المسلم الاستخلافية.